

محمود مغلح

مكتبة
الأدب
المغربي

20.10.2015

الكلمات فضاء آخر

شعر



دار الأمان

الرباط

لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ
فَضَائِلُ آخِرِ

الطبعة الأولى 1408هـ/1988م
جميع حقوق الطبع محفوظة

لوحة الغلاف — خطوط عبد الكبير كريمش

محمود مغلح

الكلمات فضاي آخر

شعر

دار الأمان

للنشر والتوزيع

4، زنقة المأمونية

الهاتف 232.76 - الرباط

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكلمة

إلى أولئك الذين يحملون الحرف
همًا ونزفًا والتزامًا
إلى الذين ارتفعوا بالحرف
إلى أفق الشهادة ..
وانهوا مرحلة لصلابة الشعر ومجانيات
الكلمة إلى الذين لونوا حياتنا بالأخضر
بعد أن قبضوا طويلاً على الجمر
من أرباء مفرينا الحبيب

أنهري نغمه الكلام

محمود مفاع

تقديم

دلالة الفضاء وفضاء الدلالة

«أنا لا أكتب الأشعار

ولكن الأشعار تكتبني»

أحمد مطر

0 — 1 : يستبطن عملنا هذا الذي نحن فيه هدفا خارج العملية النقدية والتمثيلية للابداع الشعري، وينحصر، في جزء كبير منه، في إيقاظ الذاكرة المغربية لاحتضان هذا الصوت الشعري الآتي من الشرق محملا بكل ما يميز الأرض والمرحلة، المكان والزمان، من ظلامية وضبابية وتأكل... لا لنضاعف من حدة توتراتها، أو نكرس الجو الجنائزي الذي ساق الكثيرين إلى أعتاب العدمية أو... «باريس»، ولكن لتحقيق فعل آخر ستكون قصائد الديوان كفيلة بتمثله وتمثيله على حد سواء. ومن أجل ذلك، نأمل أن يلتَمَسَ لنا العذر في بعض القصور الذي قد تقع فيه مثل هذه الأعمال التقديمية.

0 — 2 : ومن شأن ديوان في حجم «لل كلمات فضاء آخر» أن يثير إشكالات متعددة، وأفكاراً متضاربة بفعل ما يمتاز به من خلخلة لمجموعة من الأنظمة الفكرية واللغوية والايقاعية، وبفعل الارتباط القدري بينه وبين القضية المركزية في هذا العالم المراهق، وهذا ما يعدد من زوايا تناوله، ويشعب خيوط مقاربتة، غير أننا سنختار لأنفسنا وجهة لانصادر عليها، ولانلزم بها أحداً، مادام النص الأدبي يحتمل أكثر من قراءة، ومادام النقد يقف في الطرف المناقض لتعاقبية الزمن، حيث لا ناسخ ولا منسوخ، أو بعبارة ساذجة حيث تقف جميع المقاربات النقدية لنص ما في صف الناسخ من جهة، والمنسوخ بقرءات محتملة من جهة ثانية.

1 — 1 : وبما أن العناوين ارهاص المقاصد وَدَوَالِ عليها، نتيجة ما يحملها

الشعراء من شحنات دلالية ونفسية تقرب المتلقي من عالم القصائد وتدعوه للتمتع بـ «لذة النص» و«لغته السامية»، فستتخذ — نحن بدورنا — عنوان هذا الديوان مفتاحاً للولوج دون أن ننسى خلع ما يجعبتنا من «نعال القراءات الجاهزة، والأحكام القبلية».

«للكلمات فضاء آخر»، تكشف هذه الجملة الاسمية عن مغايرة بين مستويات فضائية متباينة وتستدعي في البدء فضاء ما، ستتجاوز كلمات الشاعر إلى فضاء آخر، غير أن هذا العنوان / الجملة الاسمية لا يكشف عن طبيعة أي من الفضاء الأول أو الآخر، وإنما يترك ذلك لبصيرة المتلقي أثناء «معاشرته» قصائد الديوان، ومن هنا تبدأ لحظة التوتر والكشف عن الفضاء الأول المتجاوز المنسوخ، والثاني الذي يراهن عليه الشاعر ويزعم إحلال كلماته داخل جغرافيته الجديدة.

2 — 1 : لقد كشف رصدنا المتكرر لقصائد الديوان أن الفضاء المستتر وراء العنوان ينقسم إلى ثلاثة عناصر :

— فضاء نفسي — فضاء رؤيوي — فضاء لغوي

غير أن هذه الأقسام تتداخل فيما بينها وتتناسل في اتجاه الكلمات / البؤرة التي تنداح منها ملامح الفضاء المزعوم بحيث يمكن تفكيكها من خلال الفضاء اللغوي وتحليلاته المختلفة....

فحين نسائل عبارة الشاعر في مستواها التركيبي، نلاحظ سيطرة مجموعة من الصيغ يمكن أن نخصيها في المرحلة الأولى لنكشف عن طبيعتها أولاً، ثم لنبحث — ثانياً — عن العلائق الممكنة بينها عسى أن نجد عندها هدى يضيء لنا تضاريس النفس التي «ضاقت عن الحرق... وغالها الجرح».

ومن بين الصيغ الكثيرة التي تحمل مؤشراً أو رمزا للحالات النفسية الممكنة نجد :

1 — صيغة السؤال

2 — صيغة التفجع

3 — صيغة التكرار

ولقد اخترنا أربع قصائد نعمم نتائجها على المتبقي لما بينها من وحدة في النظم والمنزع والأسلوب⁽¹⁾؛

اسم القصيدة	صيغة السؤال	صيغة التفجع	صيغة التكرار
السؤال	7	×	أكثر من 7
الغرباء	6	4	7
راوية المساء	7	3	أكثر من 7
آخر الكلام	7	×	8

يستدعي السؤال حيرة لا تنحل عقدتها الا بالتوغل صوب الجواب، غير أن الحيرة ترتبط بالجانب الفكري أكثر، مادامت تلك الصيغة هي الطريق إلى الفهم والمعرفة لكن صيغة السؤال في القصائد السابقة تحول مجرى الحيرة جهة النفس وما يعمل داخلها من محن وأزمات إلى أن تصبح — بالنسبة للمتلقي — أداة تأزم واختناق بدل أن تكون أمراً آخر فعندما يتساءل الشاعر :

من يطعن الزمن الاجازة ؟

من يعيد لنا يقين الابتداء ؟

في آخر الزمن الغناء ؟؟

فإنه لاينتظر جوابا، بل ينقل شروخ الذات المكشوفة إلى الآخر كي يوقظ فيه نفس الاستنكار ونفس الخيبة... وكذلك نفس الآمال.

وبهذا يدخل السؤال مع التفجع والتكرار في علاقات الاستنكار والخيبة، فلا يبقى التكرار مجرد وظيفة فنية — ونحن لاننكر هذه الوظيفة — بل إنه يساهم في خلق الصورة المتوخاة ويربط لاوعي الشاعر بالوعي الواقعي لكل من الذات المتكلمة والذات السامعة :

ولنأخذ مثالا على ذلك من قصيدة «الطقس».

غدا سوف تشرق شمس السلام

ويغدو الخيم عرسا جديدا.....

غدا سوف نعقد مؤتمرا للكلام

وسوف تكون القرارات حسما
وسوف نوزع بالعدل كل البلاغات
وسوف غدا نشجب المعتدين....

فتكرار «سوف» حوالي خمس مرات لم يأت لمضاعفة النغم عبر المستوى الصوتي فحسب، وإنما ليجسد — أولا — بعدا دلاليا يتمثل في لغة التسوييف التي بقيت مفردة في جعبة الحاكم العربي، لأنه استطاع أن يجعل منها «طقس» المرحلة، وليجسد — ثانيا — بعدا نفسيا يكرس خيبة الأبرياء ويأسهم من لغة الخطابات التي تخنق الفعل ولا تلد سوى الخطابات.

وكذلك الأمر بالنسبة لهذا المقطع من قصيدة: «تمر القوافل».

ويمتد ذاك الطريق الطويل
يطول الطريق الطريق السفر....

فتكرار كلمة الطريق ثلاث مرات، بالإضافة إلى فعل الامتداد والطول والسفر، يرسم أمام عيني القارئ صورة لطريق ممتد ولامتناه، كأنه طرق يتوالى أحدها في إثر الآخر دون انقطاع، فتكون اللغة قادرة على تجسيد الصورة «السيزيفية» لرحلة الانسان العربي دون الوصول إلى مشارف الخلاص، فيتبرم ويستنكر ولا يجد أمامه الا الصراخ:

وتصرخ أين الزمان المضيء.....
وأين زمان المناجل.... أين الضفاف السخية بالعطر.
أين ارتعاشات ذاك الوتر؟!

بل ان الحديث عن الفضاء الرؤيوي يربطنا هو الآخر بحالة الاستنكار والخيبة، إلى درجة تصبح هذه الأخيرة بنية متحركة في إنتاج الخطاب الشعري.

2 — 2 : يتحقق الفضاء الرؤيوي عبر مستويات متعددة، تبتدىء بالشك والكفر بالرؤى التي منيت بالهزائم منذ 1948 إلى 1982 فما بعد مروراً بنكسة 1967.... وتنتهي بلحظة الحلول والاتحاد مع «أشياء» الأرض واكتشاف الأسماء الحقيقية التي لم تؤثر فيها عمليات المساحيق والأقنعة المختلفة.

وفي أعلى السلم، تقف قصيدة «رسالة إلى محمود درويش» لتقوم بوظيفة الشك والكفر بكروية القضية التي تندرج من أقصى الجهات إلى أقصاها في ملعب السياسة البديء، وتغوص في لجج اللغات القميئة دون أن تتلمس الطريق الصحيح نحو تحرير الأرض والانسان... فيصير الشعر «قزما» أو «بهلوانا» يساهم في تصعيد الضجيج والتصفيق... بدل أن يمتشق اللغة البديل :

الشعر يزهر في منافيها
ويرحل في مآسينا..
ويذبل حينما يصفو النزيف
ونحن نمتشق الكتابة كلما زحفوا...
ونمتشق الكتابة كلما قصفوا
ونمتشق الحريف.....

مأهون اللغة التي وقفت تناضل في الرصيف !!

إن من يصفق لهم «درويش» أو يصفقون له، إنما يكرسون جو الكروية والتدريج. وبالتالي، فإنهم لا يرون في القضية سوى الهزيمة المتلاحقة فينشرون في فضاءات اللغة أجواء (المازوخية وتعذيب الذات) وأكد أقول الرضا بالهزيمة، لكن بعد فسفتها وصياغتها ضمن أشكال «صَفَرَاءَ فَاقِعَ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاطِرِينَ»... لنستمع إلى حدهم وهو يعلن في «رحلة دون كيشوته الأخيرة» : (2)

لَمْ أَرْفَعْ شَارَةَ نَصْرٍ بِأَصَابِعِ كَفِي، بَلْ أَشْهَرْتُ الـ «لا»
لَمْ أَقْبِضْ كَفِي أَجْنِي كَسْبًا، بَلْ كُنْتُ قَبِضْتُ عَلَى الْجَمْرِ سَرَقْتُ النَّارَ
سَنَاجِمَ حَيْثُ سَنُهِزَمُ
وَتُعِيدُ الْكَرَّةَ بَعْدَ هَزِيمَتِنَا مِثْلَ اللَّعْبَةِ
مِثْلَ مُضَاجَعَةِ الْعَاقِرِ لِاتَّامُلِ أَبْنَاءَ، بَلْ يَكْفِيهَا قَضَاءُ الرِّغْبَةِ.

لن نناقش هذا الشاعر الفيلسوف وإنما سنترك له الجو هادئا ليقضي رغبته مادام قد حكم على نفسه ومن معه بالعقم.

إن مثل هذه الترديات «وليس التحديات» تتردد كثيرا في شعر القضية الفلسطينية، سيما مع أولئك الذين لا يزالون يعتقدون أن الحلول الاسقاطية المطبوخة في سراديب هذا الحزب أو ذاك، أو الوافدة من هذه الدولة أو تلك قادرة على إيجاد حل الجذري لقضية العرب المركزية.

وفي حالة محمود درويش، فإنه لا يمكن للانسان إلا أن يفخر بطاقته الفنية وقدرته الخارقة على تشكيل اللغة وبلورة الذائقة الابداعية لدى مرديه وقرائه مما كان له دور كبير في تطور القصيدة العربية وانفتاح أفقها التجريبي بعد اختناق الأزمة التشكيلية المتزامنة مع حركة «شعر» وكيمياء أدونيس.

لكننا نسائل — مع محمود مفلح — درويشا في تجربته الفكرية، وما من شك أن «المحمودين» يظلان أكثر ارتباطا بالظروف والملابسات التي فرضت على محمود مفلح كتابة قصيدته تلك بحكم وحدة الهم والقضية رغم اختلاف المنطلقات والأهداف، ومن ثم فلا يحق لأحد منا أن يدلوا بدلوه في بئر سيكون حبله قصيرا وقاصرا لا محالة.

غير أن ذلك لا يمنع من الاعتراف المبدي بأن محمود «الورد الأقل» قد بدأ رحلة التشرد والضياع والمتاجرة بالقضية منذ أن أعلن في قصائده الأولى ميله للشيوعية، ومنذ أن انضم هو واصحابه إلى حزب «راكاح» الشيوعي باسرائيل، ظناً منهم أن الحزب الشيوعي يتبنى مواقف مناقضة لدولة اسرائيل.

ونحن لانرغب الآن في الرد على تلك المزاعم التي كذبتها الوقائع السافرة وإنما نستشهد بكلام لصاحبه نراه يحقق مارغبنا عن الخوض فيه.

يقول ابراهيم أبراش :

— «ومن هنا نقول، دون مبالغة، أن كل يهود فلسطين الذين جلبتهم الحركة باختيارهم إلى فلسطين هم صهيانية.

ولا نخدعنا الشعارات التي يلوح بها البعض، والمعتقدات التي يتبنونها حول الديمقراطية، فلا اشتراكيتهم تشفع لهم، ولا ماركسياتهم ولا إنسانيتهم، ولا أصولهم العربية، إنهم باعترافهم بدولة اسرائيل وعيشهم فيها على حساب شعب فلسطين الذي طرد منها طبقوا الفكر الصهيوني وهم بدعواتهم السياسية ومواقفهم المتقدمة للسياسة الصهيونية ولكن ضمن الشرعية القائمة يمدعون الدولة العبرية، ويظهرونها بمظهر الديمقراطية الحقة» (3).

ان هذه الشهادة — ولا يهمننا خلفية صاحبها — كفيلة بإبراز النفق المظلم الذي وجه بعض شعراء الأرض المحتلة إلى أن انساقوا من يسار إلى يسار... والكرة لم تتوقف عن التدحرج بعد، ولا أحد يدري أين يكون المستقر ؟

والملاحظ أن الشاعر لا يصوغ هذا على شكل بلاغات سياسية تبعد القصيدة عن التشكيل الفني وتقربها من لغة الخطاب السياسي اليومي، بل أنه يستفيد من تقنيا

التناص ومحاوره قصيدة درويش بشكل يعدد من الاصوات داخل القصيدة ويمنحها توترا وعنفا دراميين قلما نجدهما في بقية القصائد. غير أن التناص يوظف هنا لمقصدية السخرية والفضح على عكس التناص الموجود بين أبيات الشاعر وبعض النصوص القرآنية، فإنه يأتي هناك قصد التعزيد والتماثل الرؤيوي :

أ — مقصدية السخرية والفضح في التناص :

أبيات درويش	أبيات محمود مفلح
(1) «ماذا صنعتَ بقهوة أُمِّي وأمك؟» ^(*)	(1) «بردت على الشباك قهوتها وأملك لم تزل ترنو إليك وأنت تمنن في السفر محمود قلبك أم حجر».
(2) «وما زال في الدرب درب، وما زال في الدرب متسع للرحيل. تكلم عن الأمس — يا صاحبي، كي أرى صورتي في الهديل وأمسك طوق اليمامة، أو أجد الناي في تينة مهمله سأرمي كثيرا من الورد قبل الوصول إلى وردة في الجليل».	(2) «ورحلت من بعد الرحيل ورحلت من أقصى اليسار إلى اليسار إلى الفرق والبحام له الهديل لا بد من يوم بديل من سورة الأسراء نمضي للمآذن والليليل».
(3) «قطعوا يدي وطالبوني أن أدافع عن حلب واستأصلوا مني خطاي وطالبوني أن أسير إلى صلاة الغائبين.. شعلت معجزتي وسرت، فحاصروني، حاصروني، حاصروني» ^(**)	(3) «وكننت تحسب أن أرض الشام تدفق بالحليب وبالعسل. ما زلتُ أذكر عندما أمطرت عينها القبل. «لم يقطعوا منك اليدين لكي تدافع عن حلب» لكنه طبع العرب. حين استحر القتل بالفرق الجديدة وانتخى وسط الجموع أبو لهب..»

(ب) مقصدية التحسيد والتماثل الرؤيوي في التناص :

نصوص قرآنية	أبيات محمود مفلح
(1) «وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم» ^(**)	(1) وما قتلوه وما صلبوه ولكنهم شبهوه وسوف يعود إليهم قريبا يعود كما الغيمة الممطرة
(2) «وهزي إليك يخذع النخل تساقط عليك رطبا جنيا» ^(**)	(2) وأحضن تلك الجذوع الكبيرة هزا فيساقط التمر الموسمي

ولانجد حوارا مع النص القرآني يوظف لغاية السخرية والنقض ماعدا داخل قصيدة الطقوس، حيث يرد الكلام على لسان العرب ذوي التلال / البطون والحكمة الفارغة حتى من الفراغ...

وليس صحيحا بأن العروبة تأكل من ثديها الآن.

ليس صحيحا

لأن الكلاب جميعا بخير

وأن العروبة لم ينكشف صدرها للغزاة

يضيء الدروب لها سيف خالد.

وبالنجم فرسانها يهتدون

ونحن كما قيل عنا كآة أباة غلاظ شداد.

فهذا المقطع يدخل في علاقة حوارية مع الآيتين :

«وبالنجم هم يهتدون» و «عليها (أي جهنم) غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون»، إلا أنه حوار يستبطن السخرية من كلام الله، ولقد أورده على لسان «سدنة العروبة» ليضع اللمسات الأخيرة للفضاء الرؤيوي الذي تخلق فيه كلماته، فيكون التناص عاملا من عوامل تشكيل الأبعاد الرؤيوية من جهة، ومساعد على تجاوز أعتاب المباشرة والتقريبية والنزعة الخطائية في الابداع الشعري من جهة ثانية.

وبعد هذا وذاك، تتلاشى الأقنعة الزائفة من وجوه المشاركين في ملعب السياسة جذبي، وتتلاشى معها جميع الشعارات والبيانات الناتجة عنها... فتستيقظ «بيروت» و«عكا» و«غزة» في ذات الشاعر مغتسلة من صدى الكلام الرخيص، وتظهر للعين في صورتها الحقيقية، وهذا ما يفسر كثرة ورود مثل هذه الكلمات : «بيسان — الأشجار — القبرات — السنابل الماويل — الطفولة — البنفسج — النجوم — العطر...».

إن الشاعر يتعرف على هذه الأسماء عن طريق لغة الكشف كما لو كان يعيد تجربة «دَم» عليه السلام أثناء تعرفه على أشياء العالم بنفس الرغبة... وب نفس الشعور... حتى ترسخ في الذهن ولانضيق ملاحظها مرة أخرى إذا ما قدر لصراخ المتلاعبين أن يتسلل وضباب الرؤى العقيمة أن تتكاثر حول الفضاء الذي يختاره الشاعر الآن ويحمله معه حين «يصوغ للغيوم برقها... وللزهور عطرها...» وحين «يضيء ليل الأبناء» و«يحفر صخور بالأصابع الهزيلة...».

بل أكثر من ذلك... إن هذا الكشف لا يقتصر على الشاعر، وإنما يتحول إلى وظيفة تمارسها القصائد في نفسية المتلقي، فتزج عنه ترسبات النظرات القاصرة، وتثير في ذاته الحقائق التي «طال عليها الأمد فقست» وتكلس وتلاشى ضياؤها الوهاج... ومن ثم، فإن عملية القراءة تكون متبادلة بين القارئ والنص، تارة يقرأ الأول الثاني. وتارة يقرأ النص كيانه متلقيه... ودون مبالغة، فقد خضعت لهذه التجربة أكثر من مرة، وأنا أعترف على ملامح الديوان، إلى درجة تساءلت مرارا، من الذي يقرأ الآخر؟ الذي أقرأ الديوان، أم هو الذي يقرأني؟؟ وذلك أن قضية فلسطين ولبنان ليست قضاة جغرافيا. وليست بشرا يذهبون إلى الموت في الصباح والمساء، وإنما كيانه ولد في ذات الانسان العربي وما بداخله، غير أنه تعرض لعوامل الكبح والتجميد بفعل الهزائم متلاحقة والايديولوجيات الوافدة من هنا أو هناك...

وها هو الشاعر يسعى — مع غيره من المبدعين — إلى أن يعيد للذاكرة حضارها فيغيب عنها النسيان، كما «يعيد كتابة النصوص التي حرقوها» و«يححو آخر سعة القميثة من شفاه المرجفين».

2 — 3 — لعل أهم ما يميز الفضاء اللغوي للشاعر محمود مفلح خاصيتنا الوضوح والتدفق المتحكمتان في بلورة جل قصائده، فاللغة واضحة، لكنه الوضوح المبين البساطة، والمرتبط بالعمق الدلالي... ولست مستبعدا أن يعود هذا إلى نظرتة لطبيعة الشعر وكيفية توليد القصيدة، وقد يكون ردا مقصودا على التعقيد اللغوي والتشكيلي المتصاع واسع من الشعر العربي الحديث.

إلا أن هذا الوضوح لم يمنع الصورة الشعرية من الارتفاع جهة التألق والتوهج وإثارة الجو النفسي المطلوب... وذلك عن طريق «الاسناد» الذي استطاع الشاعر توظيف تقنياته المختلفة، مثل إسناد أفعال إنسانية إلى الجماد والحيوان، كما في قوله من قصيدة : «الأرض مازالت تدور» :

..... والسيف يمسعُ غمده فوق الجدار...
متأرجحا لم تبكه عين... ولا لمسته أتملة بدار
يحسدنا على هذا التألق في القرار
يتلو علينا..

«قل أعوذ...» من العيون...

فالسيف كائن جمادي معروف العمامات والوظائف، لكن الشاعر، بفعل طاقته التخيلية — يسند إليه أفعالا إنسانية، فيأكل غمده بسبب جوعه وحرمانه من أعناق الأعداء... ويستعيد بالله من العيون التي جعلته ديكورا معلقا مثل الصور تتملأه وتتلذذ بزركشة مقبضه وحيلته... أو على عكس ذلك، كإسناد أفعال جمادية ونباتية إلى الإنسان وكلامه، كما في قوله من قصيدة «رسالة إلى محمود درويش» :

الشعر يزهر في منافينا
ويذبل حينما يصفو النريف...

أو تجسّد مالا يرى من الأحاسيس والمشاعر كما في قوله من قصيدة : «على ضفاف الحلم» :

«تألق حينما تساقط الأوراق من ذاكرة الجرح..»

والأمثلة على ذلك تترى في جنبات الفضاء الشعري، مما يؤكد على أن الوضوح لدى الشاعر خاصية مقصودة، وليست له أي علاقة بالسطحية أو فقر التجربة.

أما الخاصية الثانية — وهي التدفق — فإن القارئ يلمسها عبر الفواصل وأدوات الربط المتعاقبة... وإن مجرد الرؤية البصرية للقصيدة توضح طول المساحة التي تشغلها الأبيات — أفقيا — داخل الصفحة.

ففي الوقت الذي لا ينزل فيه السطر الشعري عن التفعيلتين، فإن أطول السطور يبلغ حد التفعيلات الست كما في قوله من قصيدة : «أجنحة تغرد لها الحروف» :

«ولنا التكبير الأولى لنا الآفاق والرايات والصوت البديل».

ولا ينحصر هذا العدد في السطر السابق فحسب، بل انه يتكرر في قصائد أخرى إلى أن يصبح ظاهرة تنخرط ضمن الخصائص البنيوية في تجربة محمود مفلح الشعرية. والحديث عن التدفق وانسياب الدفقة الشعرية في شكل يلائم طبيعتها في الطول والقصر، يقربنا من الايقاع المعتمد في قصائد الديوان، ولقد حرصنا على إدراجه ضمن الفضاء اللغوي لنؤكد على أن مباحث «علم العروض» ينبغي أن يرتبط بعلم اللغة أكثر مما ترتبط بعلم الموسيقى، وهذا ما ذهب إليه «جون كوهن» في قوله : «فالنظم — إذن — ليس عنصراً مستقلاً يضاف من الخارج إلى المحتوى، بل هو جزء لا يتجزأ من مسلسل الدلالة، وهو بذلك لا يرجع إلى علم الموسيقى بل إلى اللسانيات»⁽⁴⁾.

ومن الطبيعي أن يحصل هذا نظراً للوشائج الموجودة بين اللغة / الحروف واللغة / الايقاع، تلك الوشائج التي تلغي ثنائية الداخل / الخارج أو اللغة والنظم أو الشعر المنظوم والشعر المنشور وغيرها من الثنائيات التي عاقت تطور النقد عند العرب⁽⁵⁾.

ولقد ارتبط محمود مفلح بالايقاع غير ثلاثة مستويات :

— المستوى الأول : مستوى الايقاع «العمودي» : قصائد ديوان «الراية» مثلاً
— المستوى الثاني : مستوى البحور الصافية : «قصائد ديوان «حكاية الشال الفلسطيني» و«الكلمات فضاء آخر».

— المستوى الثالث : مستوى البحور المزوجة : بعض القصائد مثل «أجنحة تغردها الحروف» من هذا الديوان.

ولم يسر هذا الارتباط سيرا عمودياً من المستوى الأول إلى المستوى الثالث، كما لا يعني ذلك الترتيب أن الشاعر تخلّى عن الشكل العمودي، بل إنه لا يزال يبدع في جميع الأشكال الممكنة، لأن «الفن — وكما يقول جون كوهن مرة أخرى — هو الذي يستغل كل أدواته، والقصيدة الثرية بإهمالها للمقومات الصوتية للغة تبدو، دائماً، كما لو كانت شعراً أبتر»⁽⁶⁾.

غير أن هذه الملاحظة الأفقية ستسوقنا إلى ملاحظة عمودية ترتبط بمسألتي النموذج والاكتمال، فلا بد أن تكشف المقارنة بين المستوى الأول (وأرفض تسميته بالتقليدي وما في ذلك لأنه يوقعنا في شرك (الثنائية) والمستوى الثاني أو الثالث عن تفاوت في سلم قيم الفنية، تكون القصائد «العمودية» في أسفله، والقصائد ذات البحور الصافية أو مزوجة في أعلاه، ولا تتعلق هذه الملاحظة بشعر محمود مفلح فحسب، بل إنها

تستوعب جميع القرائح الشعرية مما يفرض علينا البحث عن الأسباب الممكنة وراءها... وفي اعتقادي — على الأقل — أن ذلك يعود إلى أن قصيدة المستوى الأول قد اكتمل نموذجها مع العصر العباسي، وحققت أعلى درجاتها الممكنة مع أبي تمام وأضرابه من الشعراء، لذلك لم يعد بالإمكان العثور على قصائد لاحقة — زمنيا — تداني أو تبرز مستوى القصائد العباسية... وبنفس اليقين، فإننا لم نعثر في الشعر المعاصر على قصائد عمودية تدعي لنفسها الوصول إلى الأفق الذي حققته ماضيا.

وانطلاقا من هذا البيان، فإن الابداع ضمن الشكل العمودي ممكن — وقد يكون واجبا في نظر البعض — لكن بلوغ النموذج صعب — إن لم نقل : «مستحيل».

ويقينا أن محمود مفلح لن يخرج عن هذا الإطار، وعليه — وهو وغيره من الشعراء — أن يحققوا نماذجهم ضمن أشكال المستوى الثاني والثالث والرابع.... وحين يفعلون ذلك، فإننا نستطيع تهئة الجيل المقبل، لأن الجيل الراهن سينجز لهم — حقيقة — تراث القصيدة «الحديثة» ونموذجها الذي نضعه بموازاة الشكل «العمودي» كدرسين قابلين للتمثل والتوظيف والتخلي في نفس الآن.

* * *

— 1 — 0 : بعد هذه المطاولة على حرمة الديوان ولغته الملتبئة أعود إلى ما قبل البداية لأعلن أن ما أتيت على ذكره، ما هو إلا إحدى صور المقاربة، أو هو أضعفها، وهو قابل لأن يعضد بدراسة القارئ المغيرة، كما أنه قابل للنسخ «حكما وتلاوة»، إلا أن عذري سيكون مقبولا لأنني حاولت أن أرد بعض الدين الذي أشعر به تجاه القضية التي يوقظها صوت الشاعر في أنفس الذين يرفضون العقم ويؤمنون بالخصب والاختضار، فلا تموت القضية في كيانهم ووعيمهم، لأن العلاقة الشرطية تضعهم أمام طريقين لا ثالث لهما : إما الحضور وإما الغياب.

أما الذين يتوهمون أن القضية حاضرة فيهم وأنهم حاضرون فيها، فإنه ليس حضورا أو لنقل — نزولا عند الرغبات. إنه حضور، ولكنه حضور في الغياب.... وهو أردأ أشكال الغياب مادام يفرق في التخدير، وليس له من خيوط الوعي إلا «خيوط العنكبوت».

محمد إقبال عروي

السؤال

وتسألني عن الشفق الحبيب وكيف لا يأتي
عن الأحلام في دوامة الصمت ؟
وعن شدوي وعن همسي وعن جرحي وعن موتي ؟
وتسألني .. وتسألني
وأبصرُ في حطام الكأس بعضَ ملامح الوقتِ



رقيقٌ أنت
سنبله بلا حُزن ولا كدرٍ
رهيفٌ أنت كالوتر
ووجهٌ أنت مسكونٌ بأعياد من الزنبق
ورحلتك البريئة لم تنزل في سحرها بكرا..
فلم تعثر بنا يوما ولم تجزع.. ولم تقلق !
ربيعي حديثك...
كيف لا تَحْتَلُّ قامتك الفراشات العذاب...

وكيف لا تعشق؟!
رخيا فيك يجري الماء والأحلام والزورق..
وتسألني .. وتسألني
لماذا قلبي المعطوب لا يصبو .. ولا يهفو .. ولا يعشق؟!



ضفافُ الحزن تعرفني
ويعرفني الدُمُ القاني
ففيه تَعَمَّدتُ قُبْلِي ... وطارَت منه ألحاني
أنا والساحلُ المهجور والنسرُ الذي أضناه بُعْدُ الدار
... إلفان

وأعرفها خيول النار
أعرفها حقول الغار
أعرف سحنة الجاني
وأعرف كل سَوَسَنَةٍ، وأعرف كل عَوَسَجَةٍ وأعرف كل قُبْرَةٍ
«يسان»

وأعرف حَطُوبَ أحبائي..
وأعرف كل قافية على أو تار خلّاني
وأعرف أول الشهداء..
أعرف آخر الشهداء
في ساحات لبنان

وأعرف شوطنا الماضي .. وأعرف شوطنا الثاني
وأحفظ وجه جزاري .. ومن قد خاط أكفاني !!
ومن حاموا على جسدي .. ومن سارو بجثمانني..
وأعرف موسم الحيتان في أعماق خلجاني
وأعرف كل من رقصوا على أنغام «كاهان»
وأعرف لحظة التفجير في تاريخ بركاني ..

وتسألني لماذا أنت لم تعشق ؟
كأنك لم تشاهد غابة الأحزان في عيني
آلاف الطيور تحطّ في كفي
وتنقر حبّها الصيفي ... في شوق وفي لهف

أضيء لها دروب الماء
أحضنها وأشتعل
وتزهر عندنا القبل
ونمضي في دروب العشق..
نمضي ثم لا نصل.
متى نصل ؟

سؤال دار في خلدي
سؤال غاص في كبدي

سؤال طعمه كالملح كالصَّبَّار يا ولدي
يعذبني ويصهرني ويقصيني عن البلد

ويا ولدي

رقيق أنت كالتفجير.

قاس أنت كاللورد

نظيف مثل حدّ السيف .. مرّ الطعم كالشهد

مضيء.. مثل لفح النار مثل عقارب الوجد

فسجّل كلمة بعدي ...

غدا تعرى

غدا تشقى

وتبقى فوق كف الموج بين الجزر والمدّ

غداً ينفُضُ عنك الناس عن قصيدٍ وعن عمد

وتصْهَلُ دونما صوت

وتظمأً دونما ورد

وتطلق في سماء الله ألف إشارة حمراء .. لا تجدي !

غداً تخضّلُ عيناك

غداً تنهّد رجلاك

غداً تمشي على أرض من الطين

تُعربد بالسكاكين

وتسقط في شراك الموت بين الحين والحين

غداً تمتصّك الأحزان والطرقُ
وليل الناس والاعياء والقلق
غداً تأتيك أحوالٌ وأحوال
ويلمع مأوك الآل
ويضرب كل ما شيدت أعصارٌ وزلزال !!
فعندئذ يلوح البرقُ ثم يزجر الرعدُ
ويطلق سيفهُ الغمدُ
وتشتعل الجياد ويورق الحجر
ويشهر سيفهُ عمرٌ .. فلا يُقي ولا يذر
وعندئذ تلوح الشمس .. يجري الماء والثمر
ويبدو سيدي القمرُ

أيتها المقطلة.. أيتها السنبلة

قُرْنَفَلَةٌ في الصباح الشفيف توشوشني عن سعفات
الظهيرة

تسأل عن آخر الذكريات
وتسأل عما تبقى على أوجه الناس من غمغمات
وتسألني عن بقايا الرفات



عيونُ الطفولة تستلُّ مني الكآبة
تشعل فيَّ السؤال الرهيف ..
وتمخر الدفء
أشعر أني نهرٌ تزغردُ فيه المياه
وأني أنشودة لم تصغها الحناجرُ
فجرٌ من البوح والأغنيات
لماذا تحاصرُك اليومَ هذي الفجيعةُ
يمتصك الشوقُ والزمهريرُ؟؟

أما اليوم عيدٌ

عصافير هذا الصباح ترفرف للضوء

والطقسُ مشتعل بالبراءة

سرب من الصيِّة المُتَعِين على صهوة العشق

هيا إلى سفر في الأراجيح فوق حشائش هذا النخيل

وهيا إلى المجد

هيا إلى الوعد .. هيا إلى صبوات النخيل

أضيئوا القناديل في عتَمات القلوب

وصدّوا الغُرايينَ عن شرفات المدينة

صدو النعيقِ وصدّوا العويل



تقدم إلّي حبيبي وجيء كالبروق وجيء كالصهيل

وكن كالورود التي تعشق الطلّ والضوء

كالبدريست سلطانة في السماء

وكانهر يروي لهاث الفصول..

أخاف عليك من الريح والثلج

من لعلعات الرصاص الأجير

ومن راية تنحني للرياح

أخاف عليك الدُّجى والنباح

أخاف عليك من الهمس والقنص
من خطرات الثعابين
من طعنة ثرة بالجراح



أخاف عليك
ولكنني الجسر فاعبر
ولكنني غيمة الاشتاء الكبير
ولكنني الظل والظل في لفح هذا الزمان الهجير



أحاول أن أرتديك
تحاول أن ترتديني
وأخطو إلى قمر الورد والياسمين
إلى دفتر العشب
أكتب فيه الزمان الجديد الذي أشتهيه
وأستنبت فيه الذي يشتهي
وأطوي شراع الهزائم في
وأجترح البحر
أسكب في غمرة الوجد ماء العيون

ولكنه القنص !!

هل أتقيه .. وهل يتقيني ؟!



وأمسك خيط الفجاءة

أحمل بين يديّ الشموع

أذبّ الهوام عن الاعين الرمد

أدعو الطيور التي جرحتها المسافات

أصنع من رفة الجفن عشاءً

ومن بحة الصّوت دُفّاً

وأحضن تلك الجذوع الكبيرة

هزّاً فيساقط الثمر الموسمي

وهزّاً فيلتمع البرق خلف المدارات

هزّاً وينهمر الغيث..

تجري إلى شاطئ في الجنوب الحبيب سفينتي..

قطار الشمال الفلسطيني

يمر القطار سريعاً
إلى أين يعبر هذا القطار؟
رحلت كثيراً
وكابدت مالا تطيقُ
وهذئك هذئك أيدي العشار
وها أنت ترحل عبر الشمال
إلى حيث يَحْتَنق الورد والضوء
تصطفق الريح والموج
تنتحر القُبُرات الحبيبة
يزدحم الميتون على القبر
يصرخ فوق القبور السؤال..
ويعصف فوق القبور الغبار
إلى أين يرحل هذا القطار .. ؟!

إلى أين يدفعه الدافعون
إلى أي هاوية أو قرار..



وأحلم أني رجعتُ إلى الدار
هرولتُ فوق الصخور الأليفة .. بين الغيوم الشفيفة
صوب الزهور التي أفعمتني
وعانقتُ أشجارنا المجدية
خوضت خوضت .. حتى الدوار



إلى أين يمضي قطار المساء

وأعلم أن بيادرنا في الجنوب
وأن خنادقنا في الجنوب
وأن ملاعبنا في الجنوب
وأن الطيور الجريئة لا تعشق الريح إلا جنوباً
وأن البيارق تركض خفاقة للجنوب
وأن مرابع عهد الطفولة عهد الكهولة
تمتد ما بين صمت العيون وصمت المآذن
عبر الحقول وعبر الفصول

لماذا إذن يقتلون الخيول ؟!
لماذا إذن يقصفون العصافير عند الظهيرة
يستبسل اليعرييون في ذبحنا المستميت
لماذا سكتنا عن الخنجر المتضرج بالغدر
عن طلقات الدجى الخائئات
وها نحن نقرع فوق حطام البيوت الطبول
لماذا إذن يقتلون الخيول .. ؟!



ولابد أن يشهد النهر
لابد أن ينطق التلّ .. أنا صمتنا
وأنهم تحت صمت العشيرة قد اتقنوا كل هذي الفصول
وأن الأرناب، أن الجنادب، أن العناكب..
في ردهة الصمت كانت تصول ...
وأن الحرائق في غمرة الصمت كانت تحاصرنا .. والذبول ..
لماذا إذن يقتلون الخيول ؟!

وأعلم أن حقول البنفسج ترضع من «كرمِل» الوهج ...
من ضحكة الثلج .. حتى الضفاف
لماذا نساوم حتى الكفاف
وحتى الحجارة حتى السكاكين .. حتى السيوف الرهاف الرهاف

وفي آخر الشوط نسقط أو نتساقط
نُحصد أو نُحصَدُ.. لا فرق لا فرق
هذا أوان ازدهار القطاف



إلى أين يمضي قطار المساء؟؟

تبعثرنا الريح تحت الوهاد وفق التلاع
ونعلن أنا بدأنا النزاع
وينتفش الريش يصطبغ الموج
نغدو ديوكاً ...

وتلمع تحت الدماء المخالب
ننesh ننesh حتى النخاع !
وترقص فوق الوليمة أفعى
ويحتفل العالم القرمزي
ويغرق في الرقص أغلى شراع ..



و «شامير» من فوق أشلائنا يتموج
يضحك، يرقص، يسكر.. يركل أجسادنا باشتاء
يُصَفِّقُ للقائمين على «العرس»

يمنحهم نجمة نجمتين
وأوسمة النصر بعد الصراع



إلى أين تمضي فراخ العصافير
طفلي الذي لم يزل في اللقافة
جدي الذي استوطنته الكآبة
حشد النساء الذي في المخيم
إلى أين يَرْتَجِلُ اللاجئون ..

ومن سوف يؤويهم .. لست أعلم
وأَي سماء ستمنحهم رخصة للهبوط
وأَي جبال ستعصمهم من هدير القذائف
من أذرع الليل والأخطبوط .. ؟!
ومن ذا يضمّد هذا النزيف
ويمنح طفلتنا المستجيرة بعض الرغبة
ومن ذا يُقَدِّم شيئاً من الدفء .. شيئاً من الضوء
للهاثمين هنالك فوق الرصيف .. ؟!

لماذا يلاحقنا الموت براً وبحراً وجواً
وغرباً وشرقاً
وصمتاً ونطقاً

ويحصدنا فوق كل الدروب
أكل الرصاص الذي أطلقوه عليك حبيبي
لقتل الحنين القديم الجديد....
لهذا الجنوب ؟!

مرثية للمساء الأخير

نقطة من هنا
نقطة من هناك
لقطه من هنا .. لقطه من هناك
عقرب أم ملاك ...
أنت من باعني .. أو سواك ... ؟!



ونقرأ في صفحة الماء كلَّ الوجوه
ونقرأ كل الفصول
ونخطو على شفرة السيف
كي نستظل بزيتونة الفجر
نذمن هذا العذاب الجديد
ويصقلنا الشوق
ويقصفنا الشرق

تتبعنا القبرات الحبيبة
تبحر فينا العواصف
تبني العصافير أعشاشها في البنادق
هذا زمان الفيالق
يلتحم الماء والنار

نخطو ويتبعنا البرق
نخطو ويصهرنا الشوق
تسكننا الريح والزمهرير ..
ويزفر تحت الرماد السعير !....



نقطة من هنا
نقطة من هناك
لقطة من هنا، لقطة من هناك
وينفسح الأفق، تكتمل الصورة، تلتمع العين والناب

نبصر هذا وذاك ...
ونبصر كلّ الجروف وكلّ النقاط
ونضحك مِلءَ البنادق
مِلءَ الحجارة مِلءَ الرؤوس القميئة

مِلْءَ السَّنَابِلِ وَالسِّيفِ .. مِلْءَ الْهَجِيرِ
وَنَكْتُبُ أَغْنِيَةَ لِلصَّبَاحِ الْجَدِيدِ
وَمَرَثِيَةً لِلْمَسَاءِ الْأَخِيرِ

وَيَمْنَحُنَا الْبَحْرَ عِزْفًا جَدِيدًا
وَيَمْنَحُنَا الْجِرْحَ وَرَدًّا جَدِيدًا
وَيَمْنَحُنَا زُورْقًا لِلْعُبُورِ ..
وَنَصْنَعُ مِنْ جِرْحِ أَيَّامِنَا النَّازِفَاتِ قَنَاظِرَ
نَزْرَعُ فِيهَا الزَّنَابِقَ
نَصْنَعُ مِنْهَا الدُّوَارِقَ
نَسْقِي الْوُرُودَ الَّتِي جَفَفُوها، وَنَدْعُو الطَّيُورَ الَّتِي نَفَّروها
نَعِيدُ كِتَابَةَ كُلِّ النُّصُوصِ الَّتِي حَرَّفُوها
وَنَحْرُسُ هَذَا الصَّبَاحَ الْمَثِيرَ ..



وَأُقْسِمُ أَنَّ السَّمَاءَ سَتَمَطُرُ
وَأَنَّ الْخِيَامَ سَتُثَارُ
أَنَّ الْبَحَارَ سَتَمْنَحُنَا قَبْضَةً مِنْ جَدِيدِ
وَنَعِشِقُ هَذَا الرِّصَاصَ الْأَمِيرَ



إنه الاجتياح
وها هي ذي شهرزاد تواصل قصتها في المساء
وتعلن قصتها في الصباح
لم تعد شهرزاد لتسكت عن كل قول مباح
انه الانفتاح ...



وليست طرابلس أفقاً لنجمة داوود
وليست طرابلس إلا التي أقسمت أن يرد السلاح

عطشنا
وكانت بكفّ الاخوة
تسقي وتسقي الزلال القراح
عريتنا

فضمّت علينا الجناح
فليست طرابلس غير التي أقسمت أن تُضمّد في ساعد الأخت
كل الجراح ...
فليست طرابلس مثل التي صفقت في الصباح
وسلّت علينا سيوف المساء



وردة للاخاء

وردة للرصاص الذي ينقش الفجر
حين تلوب القصائد عن صيغة للثناء
وردة للجذور التي لم تزل تنجب الأوفياء ..



عرفت «طرابلس» غير التي أرجف المُرْجِفُون
عرفت طرابلس غير طرابلس
غير التي جَعَجَعَتْ في المواسم
غير التي سرّها أن نهون
وغير التي ساءها أن نكون
عرفت طرابلس أخت العقيدة ..
أخت الجذور وأخت الغصون

وللطقس حال آخره

معذرةً إذا بدأت أكتب القصائد المجرّحه
وأستقيل من منابر الغناء
معذرة إذا هجرت ذلك الميناء
فإنني فقدت في دوامة الصمت جميع الأسلحة
فقدت رايتي التي غدت على رمال عجزنا مطوّحه
فقدت ساعدي الذي يحملها
وسيفي الذي يصقلنا
وقفتُ عاجزاً وباهتاً أمام هول المذبحة !!



معذرةً
فالقادم الجديد ينهب الفضاء
يغيّر التربة والبذار والحليب والأثداء
ليُسقط المرحلة المسطّحة
ويستعيد في زماننا العقيم .. نضرة الأشياء

معذرة .. فإننا غشاء
وإننا الثريدُ في الوليمة. الكبرى
وإننا في متحف التاريخ مومياء
ترمقنا عيونهم
ويهمسون كُلَّمَا مَرَّوْا بِنَا
«بقيةٌ باقيةٌ من أمة الصحرَاء»



سمعتُ عن جزائم اليهود
عن مخالب اليهود
رأيتُ كيف تستमित دون غابها القروء
وكيف تستحجُّ بالدماء وهي عن صغارها تذود

عرفت كيف يصبح الخفافش سيّدا إذا بغت عليه قطّة ؟!
وكيف يستطيع التمل أن يحجّر الجحور من غزاتها
وكيف يصبح الدجاج جبهة مسلحة
أمام ثعلب تجاوز الحدود ...
وكيف يستحيل التمل غابة من اللهب
أمام عُشّه المهدود ..
وكيف تصهل المياه خلف سدها وتُحطم السدود

لكنني جهلت كيف نعشق الحياة
ننام في فراشنا الوثير
تلفُّنا شرانقُ الحرير
نضاجع الأحلام في بلاهةٍ ونمضغ الوعود ..
وكلُّ شيء كل شيء عندنا مفقود ..



لعلها رصاصةُ الخلاص قبلَ صرخة الميلاد
لعلها انتفاضة الجمرة في الرماد
فإن ذلك الأفق يَدُرُّ قرنه
وإنه ذلك الجواد قادمٌ ..
وخلفه الجياد..



لا بد لي من وقفة على تخوم المجزرة
لا قرأ الوجوه والسيوف
لاستعيد صوتي القديم من برائن الدفوف..
وأجمع الرواية المبعثرة
لعلني لعلني — أضيء ليلَ المقبرة



أَكَادُ أَبْصِرُ الرِّيعَ فِي مَلَاعِبِ الصَّغَارِ
أَكَادُ أَبْصِرُ الْمِيَاهَ تَزْحُمُ الْإِنْهَارِ
وَأَبْصِرُ الصَّبَايَا الْغَيْدَ مِنْ فِرَاتِنَا الْحَبِيبِ
تَمْلَأُ الْجَرَارِ

أَكَادُ أَبْصِرُ الْعَيُونَ تَسْكِبُ الْفَرَحِ
وَأَبْصِرُ الزَّمَانَ يَسْتَدِيرُ
وَأَبْصِرُ الْجَنَاحَ شَانِخًا فِي عَرْسِهِ الْكَبِيرِ
وَهَا هِيَ النُّجُومُ مِنْ جَدِيدِ
تَتِيهِ فِي السَّمَاءِ
وَتَسْكِبُ الْأَعْيَادَ وَالضِّيَاءَ
تُكْحَلُ الْعَيُونَ بَعْدَ لَيْلِهَا الطَّوِيلِ
تَعِيدُ لِلْأَحْدَاقِ سَحَرَهَا .. وَلِلْوُرُودِ عِطْرَهَا ..
وَلِلْجِيَادِ ... ذَلِكَ الصَّهِيلِ ..

رسالة إلك محمود طرويش

كم مرة سَنَموت
قل : كم مرة سَنَموت والانبياءُ تَزَخَّرُ بالقبور
منذ التقينا في هَجِير الصيف
والأشجارُ لا تهفو إلى بلدٍ
ولا تبكي على أحدٍ
وأنت كما عَهِدْتُكَ منذ فاض النهرُ تصرخ من جديد
يا أيها الوطن القريب، وأيها الوطن البعيد
هم أئخنوك وإنما صاغوا على فمك النشيد ..



العشب مُرَبِّكَ هناك على تخوم المجزرة
وهوت سكاكينُ الرِّفاقِ تُضيءُ ذاكرةَ الخيم
آه يا قَمَر الخيم
آه يا قَمَر الصمود
الشعر يزهر في منافينا

ويرحل في مآسينا
ويذبل حينما يصفو النزيف
ونحن نَمْتَشِقُ الكتابةَ كلما زحفوا
ونَمْتَشِقُ الكتابةَ كلما قَصَفُوا
ونمتشق الخريف
ما أهون اللغة التي وقفت تناضل في الرصيف .. !!



يا سيّد الشعراء
إنَّ القرع لم يخجل ونحن نُجَهِّزُ الأكفان للموتى
وأن الشعر لم يخجل ... ونحن نضاعف الشهداء
لا نبكي .. ولا نبكي
ولكنَّ القصائد لا تُجيدُ سوى الرثاء
هي مهرة الحقل الجميل
وجمرة الصيف، الشتاء

كنا نظن الفجر سوف يُطلُّ من أشداقكم .. يا هؤلاء !!
وعزفت آخر لحنك الدمويّ في العرش الأخير
وكُنْتُ أوّل من يجيء ولا يجيء
وكم انتظرت، وكم سفحت دماً على صدر القصيدَة كي يمروا

وكم احترقت لكي يمروا
إنما مرّت قذائفهم ..
ومرّت آخر العربات في ليل المخيم ..
في الطريق إلى المساء



ألقيت جرحك في المنافي واتكأت على القصيدة
وانتظرت من الصباح إلى المساء
من المساء إلى الصباح ... ولم يمروا
جاؤوا إليك وتوجوك وغادروك
والشمس تطبّع آخر القبلات في ثغر المخيم
والمخيم يحضن الأشجار والأطفال
يمحو آخر اللغة القميئة من شفاه المرجفين

محمود لم تخرج من البلد المسور بالنضال
محمود لم تدخل إلى البلد المتوج بالنضال
لكنها الصحف العتيقة والحناجر والقصائد
حينما هتفت لمجد «أبي رغال» !!



عفواً إذا ما جاء هذا الحرف مكسوراً ومعجوناً
بآخر قطرة في العين ... آخر خطوة صوب الشمال ..

محمود كان الطقسُ محسوباً
وكان الخبز منهوباً
وجاء الزاحفون على البطون
محمود للذكرى إضاءات وآيات وطقسُ
محمود قل : إن المراكب وسط هذا الموج والقنص المعربد
كيف تر

بردت على الشباك قهوئها
وأملك لم تنزل ترنو إليك
وأنت تُمنع في السفر
محمود قلبك أم حجر
وتركتها ...

وتركت أعشاش الطيور على الشجر
وتركت آخر دمة في العين، آخر غصّة في القلب
آخر جمرة تحت المطر
وتركت جرحاً نازفاً ..
وتركت قنديلاً بكوخ فيه كم يحلو السهر !!
وتركت يا محمود لحنك لا يُبوح به وتر

ونسيت حين هَمَلْتَ أغنية التَّشْرِيدِ
فُلَّةً تحت الثلوج .. وشهقةً فوق الصور
محمود أرضك لا يَلِيقُ بها الغزاة
وأنت في المنفى هناك .. ولا شفاه ولا خبر !
لكنها النار التي رقصوا بها إذ توجوك، وأثقلوك
وأنت وحدك في المسيرة، أنت وحدك والضَّجَرُ



كم ضُقتَ ذرعاً بالضجيج
وقلتَ عن دربي تنحوا كي أمرٌ
ولا تضيفوا عضّةً في الحلق
فالسيف الذي يَهوي على عنقي حرير
انما قلبي وَرَقٌ

وَرَحَلْتُ من بعد الرحيل
رحلتَ من بعد الرحيل من الظهيرة للعَسَقِ
ورحلتَ من أَقْصَى اليسار إلى اليسار إلى الغَرْقِ
وكتبْتَ للجرح الجديد
كتبْتَ للنصر الجديد !
وكنْتَ تحسب أن أرض الشام تدفق بالحليب وبالغسل

ما زلتُ أذكر عندما أمْطَرَتْ عَيْنُهَا القبل
«لم يقطعوا منك اليدين لكي تدافع عن حلب»
لكنه طبعُ العرب
حين استحرَّ القتل بالفرق الجديدة
وانتَحَى وَسْطَ الجموع أبو لهب ..



وبعثتُ ألف رسالةٍ من خلف أسوارِ الجليل
ولم تجبك، ولم تجبك
وهل تجيب حبيبةً يوماً حبيباً قد هرب



محمود فاجعتني وفاجعة القصيدة
أنني ما زلت أهذي
والمياه هي المياه

محمود صوتك أم صداه
لا وقت للتّهريج
إنسا سائرون إلى المذابح
محمود كاويةٌ هي الذُّكْرَى
وذاكرةٌ هي الطعنات في ظهر الخيم

واليمام له الهديل
لابد من يوم بديل
لابد من يوم بديل
لابد من يوم بديل
من سورة الاسراء ...
نمضي للمآذن والجليل ..

البشارة

لم يبق غيرُ رصاصتين
وتبزغ الشمسُ التي رَحَلَتْ
وتكتملُ القَصِيْدَةُ ... ثم يشتعلُ النهار



الشمسُ يكتبها الذين تمزَّقَتْ أجسادُهُمْ عبرَ الزنازن
أدمنوا الايمان في زمن التكبُّب
كابدوا حتى الشهادة
أوغلوا في الجرح حتَّى الاخضرار ..



يا أيها المتناثرون على رمال الوهم
يا حطباً بلا نار
ويا موتى بلا حفرة أفيقوا
مزقوا الأسمال والأغلال وارتفعوا إلى أفق المصاحف

إنها الآياتُ مثقلةٌ يطيرُ بها الحُداةُ
وإنه الفجرُ الذي شربَ التلاوة
إنها الآياتُ تقرعُ سمعكم وتضيئكم
وتشدُّ كم صَوْبَ الضَّفافِ
يا أيها البشر الخراف

لم تبقَ غيرُ رصاصتين وجشَّين
وتسقطُ الحُودُ التي لمعتَ بليلِ العار
تشتعلُ المَواويلُ التي انطفأتَ بأعينكم
وترتشفونَ حَمَرَ النَّصْرِ
تذفُقُ بالحليبِ نِساؤُكم فيُبرِّعُ الأطفالُ
تَحْتَشِدُ البَلابلُ في حناجرهم ...
وينهمرون في عَطَشِ الجفافِ

يا أيها المستضعفون
يا من يُورِّخُهم زَمَانُ الجُوعِ والأشْبَاهِ
يفترشون شوكَ الصَّبْرِ
.... يَلْتَحِفُونَ أَقْبِيَةَ الدُّخَانِ
يا أيها النعم الذي عزفته رِيحُ الفجرِ
واصطفقت به الصحراء ..

وانطلقت به البيضُ الخفاف
ليلُ الزَّواحِفِ لَنْ يَطُولَ ...
ولن يطولَ دُجَى الخراف ..
فتَاهَبُوا للموسم الميمون .. قد بدأ القِطاف ...

يا أيها المُتَمَرِّكُسونَ، وأيها المُتَأَمِّرُكون ..
ويا أيُّها الكُتَلُ الذِّينَ بِلاَ مَلامِحِ
يا من تُدَوِّي فيهِمُ السَّاحَاتُ والقاعات ..
ينفَجرون في عَفَنِ المَسَارِحِ
يا مَنْ أَكَلْتُمْ خَبزَ جَوْعَتِنَا
وَدَبَّجْتُمْ على دَمِنَا المَدَائِحِ
يا مَنْ نَزَحْتُمْ قَبْلَ أَنْ يَنْكِحَ على الأوطانِ نازِحُ
لا تحسبو التاريخَ مزبلةً عليها تنفِشون الرِّيشَ
«مَآخِوراً» به تَسْتَغْرِضُونَ سَيُوفَكُمْ
أو قِصَّةً تُرَوِّى عَنِ الدَّجَلِ المكافح !

سقطت جميعُ الأَفئعه
وبدثُ أُمَامِ الناسِ سوءُتُكم
رأينا ما وراءَ الجَعَجَعَةِ
وجرَى القصاصِ
لَحْناً يُسَطِّرُهُ الرصاص ..

وَقَصِيدَةً ثَمَلَتْ وَسِيفاً لَا يَسَاحُ ..



فَإِنَّ لَكُمْ كَمَا قَالَتْ «جُهَيْنَةُ» سَاعَةً يَصْحَوُ بِهَا الْأَغْمَاءُ
تَخْطُو نَحْوَ أَهْلِهَا الْمَصَارِعَ
قَالَتْ جُهَيْنَةُ إِنَّ طَائِفَةً سَتُظْهَرُ
إِنَّ طَائِفَةً سَتُكْفَرُ
إِنَّ يَوْماً مَثْقَلًا بِالرَّعْدِ تَمْضَعُهُ الْخُيُولُ ...
وَتَرْتَوِي فِيهِ الْجَوَارِحُ ...

لـ

لَوْ كَانَ سَيِّدِي يَنَامُ مِثْلَمَا نَنَامُ
 لَوْ كَانَ يَأْكُلُ لِلْقَدِيدِ مِثْلَنَا
 أَوْ يَنْزِفُ الصَّدِيدَ مِثْلَنَا .. وَيَشْرَبُ الْآلَامَ
 يَطَارِدُ اللَّقْمَةَ مِنْ هُنَا وَمِنْ هُنَاكَ
 لَوْ مَرَّةً يَنَامُ فَوْقَ هَذِهِ الْأَشْوَاكِ ...
 لِأَذْرَكَ الْفَارِقَ بَيْنَ لَيْتَيْنِ
 وَأَدْرَكَ الْفَارِقَ بَيْنَ زَفَّتَيْنِ



لَوْ مَرَّةً يَعُودُ سَيِّدِي لِكُوخِهِ الَّذِي تَسُوْطُهُ الرُّطُوبَةُ
 فَلَا يَرَى سِوَى الْأَشْبَاحِ فِي انْتِظَارِهِ
 وَالْجُوعِ فِي هَيْئَتِهِ الْمَهِيئَةِ ...
 وَطِفْلِهِ الصَّغِيرِ صَارِخاً مَرْفُوفاً مِنَ الْأَلَمِ
 يُصِرُّ فِي يَدَيْهِ قَشْرَةَ مِنَ اللَّيْمُونِ

أو زجاجة فارغة وفي اليدين دم
يهيج في صراخه ...
لأنه يريد قطرة من الحليب ..
مِرْقَةً من الأدم

أو ممعنا في رحلة العذاب
يُدور كالخدروف حول نفسه
والموت واقف على الأهداب
يطارد الدواء والدواء هارب
لأن جِيئُهُ خاوية من ثمن الدواء

فما الذي يملكه عندئذ
سوى البكاء والبكاء ..
أو امتشاق السيف في ضراوة الذئب ...
لكي يفجّر السحاب والثُّراب .. والتراب والسحاب ..



لو كان سيدي يلوب مثلما نلوب في النهار
من الصباح للمساء
للجراح .. للغبار
من أجل أن نحصّن ابتسامة على الشفاه ..

أن نروّض الدينار
من أجل أن نعود للأكواخ
قبل أن تنام دون خبزها الصغار



لو كَانَ سيدي كما أقول
لما توقفت عن جريها الفصول
وما أئيت ها هنا منكسراً وجارحاً
أجر ما تبقي من كلامي الحُجُول ..
وما انتهى الذي انتهى
وما ابتدا الذي ابتدا
وما حملت النار .. كل النار للحقول ..



لكنني من أجل أن أصوغ للغيوم برقها، وللزهور عطرها
من أجل أن أضيء ليلكم يا أيها الأبناء ..
لا بد أن أواصل الغناء ..
من أجل أن أصون دَمعة الطفولة
من أجل أن تظل فوق ظهر طفلي مبحرة
سنايل الجديله ..
سأخفر الصُّخُور بالأصابع الهزيله...

تمر القوافل

وحين بدأت الكتابة
قالوا توهمت
ما أنت إلا ضجيج السفر
وما أنت إلا غبار الزمان، الزمان الحجر
وما أنت إلا .. !!

وليلي التي كنت تصطادُ فيها عصافيرَ شِعْرِكَ
ليلي التي كنت — حين التّراشق بين القبائل — تَأْوِي إليها
وَتَمْنَحُهَا بَعْضَ خُبْزِ الطَّرِيقِ، وتمنحها ضوء ذاك القمر
وليلي التي كنت ...!!
ضاقت بكل العصافير، ضاقت بكل المواعيد ... كل الصّور
وها هي تضحك ضحكاً سخياً
تلوّح من شُرْفَةِ القصر
والموج يوشِكُ أن يَغْتَلِيكَ

وليس وراءك الا النصال
وليس أمامك إلا الرمال.. وإلا الطريق .. الطريق الخطر
وما زلت تكتب عن زرقاء الماء
تذرف زيتاً بقنديل «عكا»
تخبىء «بيروت» بين الضلوع
وتردّم بعد القذائف والموت كل الحفر

وما زلت تبحث عن سمك للعشاء الجديد
تقدم للأرنبات الصغيرة أحلى الكلام ...
وتحكي عن الموسم المنتظر ...
تبعثر هذا الكلام الجديد أمام الذين يموتون صبراً
وتصنع لؤلؤة للعيون التي غاب في محجرها البصر

وما زلت يا أيها البهلوان الجديد
تراقص حياتك الناعمات.
وتخرج من كمك المترهل قطاً
وتستنبت القمح في الماء
تزرع في كلّ ليل قمر
وما زلت تشعل جمر العشيّة، تبتلع النصل
تخرج بيضاً ولوزاً ...

وحولك يضحك هذا التراب. الترابُ البشرُ !



لقد بدأ النوم
كل الذين أمامك في حُلُمهم يغرقون
فعولن فعولن فعولن فعول
ولكنَّهُ الوقتُ كالسيف ..
والسيفُ أهونُ ما يحملون
وعند المساء تعود وحيداً
كما النهر في آخر الصيف
كالقارب المترنح بين الصخور

ويصهلُ فيك الصهيل
وتعلم أنك وحدك بين الصُّراخ وبين الصدى
وتشتاق ظهرك كُلَّ المدى
وتضمّ الجناحين خوف العواصف
تأوي إلى شارع جانبي وتشرّب قهوَتك الشاعرية
في عتمة القلب تنهضُ «عكاً»
وتمتدّ فيك الجراح
وتنهض كُل المآذن
ويمتد ذاك الطريق الطويل ...
يطول الطريقُ الطريق السفرُ

وتصرخ أين الزمانُ المضيء ...
وأين زمانُ المناجِلِ أين الضفائفُ السخية بالعطر
أين ارتعاشاتُ ذلك الوتر؟!

تمر القوافلُ قُرْبَكَ
تُلْقِي عليك السلامَ وبعضَ الطعامِ وتمضي
تعودُ القوافلُ

تلقي عليك الطعامَ وبعضَ السَّلامِ وتمضي
تمر القوافلُ تُلقِي عليك السَّهَامِ وتَمْضِي
تمرّ .. تمرّ

وتنكر أنك كنتَ الغني
وأنت كَأَبْذَتِ كُلِّ الجراحِ
وأنت آخَيْتَ كُلَّ الرِّيحِ
وأنت الذي لم تزل واقفاً
وها قد أَطْلَأَ عَلَيْكَ الصِّباحُ...

الغرباء

آه يَا مَوْتِي عَلَى هَذَا الطَّرِيقِ ...
آه يَا حُرْقَ الْعَصَافِيرِ ... وَيَا جَرَحَ السَّنَابِلِ
آه يَا صَمْتَ الْجُداوِلِ
سَقَطَتْ كُلُّ الْمَسَافَاتِ
وَبِירוْتِ تَفَاوَلُ
كَيْفَ أُسْتَنْبِثُ قَمَحاً
كَيْفَ أُسْتَنْبِثُ سَفْحاً
وَأَنَا أَخْطُو عَلَى ظَهْرِ الزَّلَازِلِ ...؟!



وَقَفْتُ بِירוْتُ فِي الزَّفَةِ تَسْتَجِدِّي قَمِيصاً
إِنَّهُ فَصْلُ الشِّتَاءِ

كسرة الخبز وقارورة ماء ...
خيمة يأوي إليها الغرباء !!



آه يا وصمة عارٍ في جبين المرحلة
يا عذاب الأسئله

صار أهلي غرباء ...
كيف لا يصرخُ فينا الشهداء ...
ألأنا قد وَقَفْنَا في وجوه القتله ؟
وعشقنا يَبْدُر الشمس وعَطَّر السُّبُلَه
ودفعنا حُلَمَ الطِّفْلِ وقوت الأرملة ...
ألأنا أول الماضين نحو المقصَلَه ...
قد غدونا غرباء ..



إنها الطعنة في الظهر وأرجوحة بابل
سقطت كل المهازل
وتَضُجُّ الأرضُ والساحات والبحرُ
يضج القَهْرُ والتاريخُ والحقدُ
يَضْبِجُ السيف والغمد
لماذا لم نقاتل، لم نقاتل، لم نقاتل ؟!



تعشب الذاكرة الآن ...
وفي العينين ناراً
ما الذي أكتبه في الصفحة الأولى ... وقد شبَّ النهارُ ؟
طائرُ النُّورِ فوق الماءِ يَسْتَجِدِي الخَمِيلَه
وأنا في قَمَّةِ الموتِ، أَجِيلُ الطَّرْفِ ... أَسْتَجِدِي القَبْلَه ...
وبقيتَا نَتَرَعُ السَّاحَاتِ بالقرعِ
وتمتدُّ اللِّقَاءَاتِ ويمتدُّ الحوارُ ...

رأوية المساء

أَوَاهِ يا حلمي الذي نسجتُ عليه العنكبوت
أَوَاهِ يا وجعَ البيوت
أَوَاهِ يا عَبَقَ البيوت
وحدي إذن، وحدي إذن، وحدي وقافيتي أموت



جرحي وجرحك تَوَامَان
يا أيها الجسدُ الذي نهشتُهُ أغْرِبَةَ الزَّمانِ
يا أيها الجسدُ المُضَرَّجُ بالفَجِيعَةِ والمُسَوَّرُ بالرَّهَانِ
أَلْأَجَلَ ائِنَّكَ تَعشَقُ الشمسَ الحَيِيَّةَ
تعشق الأشجار واقفةً ...
يَغُوصُ بك السَّنَانُ ؟!



من أين أحضنُ رقصة الأمواج ... عزف الريح ...
موقدنا المجر بالشتاء
من أين أحتضن النجوم ألمها بعد العشاء
وأحاورُ الأشجار في بلدي .. وأقطف ما أشاء ...

من ذا يُضَمَّدنا
وأين هُما اليدان ؟
رحلت عصفير المساء .. وجفَّ نهرُ الأقحوان
من ذا يُعيدُ براءة الأطفال ...
صَبَوْتُهُمْ إلى زمن الحنان
من ذا يضيء لنا المراكب كي نشدَّ لها العنان
سقط المُغْنِي فوق مسرحنا
وفضَّ المهرجان ..



بالأمس كان لنا مدارات
وكان لنا نسور
بالأمس كنا نغزل الأحلام

نرقصها على شفة العبور
ونعانق التُّرْبَ المعطرَّ .. تستحمُّ به البذور..
بالأمس كنا نطلق البسمات
نرحل في سماء الله نسطع كالبدور ...

ماذا أقول اليوم يا ولدي
وهأنذا على كتف الطريق
كالسنديانة بعدما اجتثت وشب بها حريق
لا جذرها باقٍ ولا غصن وريق...
والناس حُولي يهتفون
أشرق «ثبير»، أشرق «ثبير»
أشرق فإنَّ لك النذور ...
وأنا على نفسي أدور
مترنحاً بين المعازف والبخور
متشبهاً بدمي الذي نَشَقَّتْهُ أَعْرَبَةُ الطيور
ماذا أقول ... وما أحور
أواه ما أقسى الخناجر في الظهور ...



ستشَبُّ يا ولدي غداً
 ستقول كان لنا زمان
 ستقول ضاع بنا المكان
 ستندُّ من شفّيتك قافية ...
 ونشرق دمعتان
 ستقول ما قالته راوية المساء
 عن فارس حمل اللواء
 وجرى به في وقْدَةِ الصحراء والدم والعناء
 حتى إذا ما اشتد ساعده وخاضَ الموج ... واكْتَمَلَ الحداء
 حتى إذا ما قَبَلَتْ عينيه سيدة النساء
 وبُثُوت عليه واثخنوه مُدَى وأوسمة الاخاء !
 فهو تُعَفِّرُه الدماء
 لكننا بقي اللواء
 كالنسر مرتعشا يَضْجُ به الاباء
 خذته كَفٌّ من نزيف الحرج حمرتها ...
 ومن رَجَمَ الفداء

الطقة

كلوا واشربوا
إن خطَّ القذائف لا ينحني باتجاه بيوتكم العامره
كلوا واشربوا، إن آثارها لا تمسُّ حجارة أسواركم
إن كل القذائف مشغولة بالذين هناك
تلاحقهم واحداً واحداً
وتنصب في كل بيت شركاً ...
وتكمل حولهم الدائرة ...



كلوا واشربوا أيها المنعمون
فإن الخيول تُحمِّمُ في الشاشة اليعربية
والرقصات تسيل على زغردات النساء
وإن النساء يمسفرن بين الخناجر
أية مملكة للنضارة فيها النساء!؟

وأية رائعة تلکم المهرة الراقصه
غذا نكمل القصة الناقصه



وشيکاً وشيکاً
سیأتي الطعام
تِلأل الأرز المتوّج باللحم
واللحم أنضج ما تشتهون

کلوا واهنأوا أيها المترفون
تعالوا خفافاً
وسوف تعودون للعربات الأنیقة ...
مثل التلال .. التلال البطون ...
ولا تسمعوا ما يقول الرواة ...
فکلُّ الرواة هنا یکذبون ...
سحابة صيف تمرّ، وبرق تُعربدُ فيه الظنون ...

على النغم الفرد هات الأغاريد یابن زریق...
ودعنا على شُرَفات المساء، نُوقّعُ أفراحنا الموسميةَ
إن لنا أن نشاطر هذا المساء اخضرار القنادیل

دعنا من المعنين بتلك الفجیعة، لا وقت للجدل المأسوي ...

حسب القنادیل أن الشتاء قریب

وأن طيور حزیران تبحث عن عشاها الآن

من قال :

إن الطيور تباع بأقفاصها آخر الليل ؟!

غنّ كما شئت

فالليل أئمن من أن يمرّ

ونحن نشرع آذاننا للكوارث

مثل العذاری تمر النجوم

وفاكهة الليل تهفو إليكم

قصیر هو الليل بین الحسان

طویل هو الزاحف الا فعوان ..



قليل من الموت وسط الخيم

لا بأس

بعض الرصاصات أزلت هنالك لا ضير

شيخ وطفل وأم وبنت

ولحم تطاير عبر الشوارع ! وال ..

ماذا إذن بعد ذلك ؟
هل من جديد ؟!
لمذا تعيدون هذا النشيد ؟!

فالموت حقٌ
وكل الخيام التي في المفارق نهب الرياح ..
وليس على فعلها من جناح
وكل الرصاص الذي هزَّ ليلَ الخيم
كان من البحر
والبحر من طبعه أن يخون ..
لماذا إذن يُرجف المرجفون ؟!
كلوا واشربوا واهنأوا وارقصوا
مثلما تشتهون ...



خذوا جذرُكم !!
إن هذا المساء يفتش عن جثة ثانية
أقيموا حصوناً
وظلوا كما أنتم الآن

سدّوا النوافذ حتى تمر رياح الخوارج
أريقوا على عتبات البيوت كؤوس المدام
سلام عليكم ...
عليكم سلام !

وماذا تقول الاذاعات قبل المنام وبعد المنام ؟!
صبراخ وقصف وهدم وموت
ولكن كل الاذاعات كِذْبُ
وما في المخيم غيرُ شِجَارٍ يمارسه صبيّةٌ طائشون !!
وغير أنين ككل الأنين الذي قد عهدناه منذ خُلِقْنَا
وغير احتجاج بلا نكهة
كثيرٌ هي الزوابع التي في الفَنَاجِين ثارت
فلا من جِيع ولا يحزنون ...

فليس صحيحاً بأن القذائف تسقط فوق المخيم ...
وأن المخيم وجهٌ حزين
وأن الحمائم تحت الحناجر تصرخ....
وليس صحيحاً بأنهم يأكلون الكلاب
وليس صحيحاً بأن العروبة تأكل من ثديها الآن
ليس صحيحاً

لأن الكلابَ جميعاً بخير
وأن العروبةَ لم ينكشف صدرُها للغزاة
يضيء الدروب لها سيفُ خالد
تشرب من مائها الشهد ..
وبالنجم فرسانها يهتدون ..
وأن الجباه تضيء مساحات أحلامنا اليعربية
فالماء لا يغدر الماء

ونحن كما قيل عنا
كجاة أباة غلاظٌ شِداد ..
وبالأمس خضنا غمارَ الجهاد.
وتلك السيوف إذا شئت فاسأل
أليست من الصخر قُدت
وتلك الزغاريد، نهر الفتوحات
والنسوة اليعريّات فوق الجياد
لماذا إذن تطعنون البلاد ؟!



فدع عنك موت المخيم
ما قاله المرجفون،
وما زَيَّفوه عن الخنجر اليعربي الذي يعشق الظهر
في آخر الليل، عن قصة الصمت

إن السكون يقينا ذهب
وهذا الذي قد رآته العرب
وهل يقذف البحر دُرّاً
إذا مسّه طائف من غضبٍ !؟

وماذا إذا مات بعض الذين يخوضون في الموت حتى الرُكَب ؟
وما شأنهم هؤلاء
إذا ما تخاصم سعد و عمرو
وأورق في الخنجرين الظلام
غداً سوف تشرق شمس السلام
ويغدو الخيم عرساً جديداً
غداً سوف نُعَقِّدُ مؤتمراً للكلام
وسوف تكون القرارات حسماً
وسوف نوزع بالعدل كلّ البلاغات
وسوف غداً نشجب المعتدين
سنقصفهم صيغة لم يروها
نؤدّب كلّ الذين يسيئون ظنّ الشهامة فينا



على ضفة النهر نام الغزال
على جمرة القلب حطّ السؤال
تراهن «غزة» أن القصائد تنبت قمحاً
تراهن بيروت أن السنابل في الطين عاشت
يراهن من لا يراهن أن الرمال ستغزو الرمال

نسير فيتبعنا البرتقال
نسير فتكتبنا «العاديّات» نهراً جديداً
ونبكي فتخرج مِنْدِيلَهَا الْأَرْضُ
لم نفترق بعد كيما نقول كلاماً أخيراً
ولم تفقد النار طعم السؤال ...



فما زال صوت البنادق يقنعنا أن نغد المسير
وما زال للزيفون ارتعاشات غيم الغروب
وما زال للسهرة العائلية، عرس الدوالي
وللشهداء اخضرار النهار
ومن حقل هذا العذاب المصهّد نمضي
نعيد صياغة أحلام أطفالنا في الملاجئ
نكتب وجهاً جديداً لهذا الحوار



وما قتلوه
وما صلبوه ... ولكنهم شبّهوه
وسوف يعود إليهم قريباً
يعود كما الغيمة المطيرة
وسوف مع الفجر يأتي
تُغَازِلُه الموجةُ البحْرَه
يمدّ له النبعُ كَفَّ الحنين
ويمنحه الحقل بعض السنابل
تلبسه الليلةُ المَقْمِرَه
تمدّ له الطير أعناقها
ويطعمها واحداً واحداً
ويهفو لرقصتها المسكّره ...

الأرض ما زالت تـكـوهر

قلنا ويعوزنا الدليل ..
هل تملك الخيلُ التي بَطَرَتْ، صعودَ الريح، عزف البرق ..
واللغةَ البديلَ ؟

قلنا وتعوزنا الاجابه ..
الحزن يَغْصِفُ في مآقينا
وتكتبنا الشقاوةُ والكآبه
عشرون خارطة وجمهوراً .. نشيداً
فيه تشتعلُ الحناجر
عشرون مقهوراً وقاهر
عشرون نهراً من دمي ينساب في الزمن المغامر
عشرون مقبرةً تنام على رؤى البطل الذي تحتل عينيه الجسارةُ
قادماً من لجة الاعصار، من دفع الشرايين التي احترقت
ومن عطش البيادر

قلنا وتعوزنا الربابة

هل تستسيغ الشمس من نسي اسمها
وأهال فوق وضيء جبهتها ترابه ؟
هل يقمع القمع المعربد من تحطّر بالدمقس
وذاب من وله صبابه ؟!
هل يقرأ الآفاق والأشواق من نسي القراءة والكتابه ؟



قال الذين عرفتهم

من يشيلون المزهرة والبخور
ممن يبيعون الدموع لكل من ماتوا
ويحترفون رقص الطقس
من يتبرّكون بكل من شالت بطونهم
ومن يتألقون على الموائد
والحمائم والصقور ...

قال الذين يصفقون ويكسبون ويتشون ...

ويمارسون هواية الاقصاء واللقم التي
تنداح من أهل الدثور

ماذا علينا

والزمان مواسم حبلى وقامتنا طويله

من ذا يعضّ يداً تجود عليه بالنعمى
وتمنحه الفطيرة والجديله ؟!



والسيف يعضُّ غمده فوق الجدار
متأرجحاً لم تبكه عينٌ، ولا لمستهُ أُملةٌ بدار
يتلو علينا «الكهف» و «الانعام»
يحسدنا على هذا التآلق في القرار

يتلو علينا

«قل أعوذ ...» من العيون
فالنوم أروع ما يكون
يخشى علينا همهمات الفجر.. وسوسة الغصون ..
«نَمْ في سريرك يا ملك أنت الفتى ما أجملك» ؟
والليل ينجب أليلاً
ونُذْمِنُ أقداح الطلأ
حتى يصيرَ الجردُ تمساحاً ... ويسفلُ من علا !!



وأقول من وجع القصيدة
من لهيب الجرح إنا قادمون

والطور والزيتون والبلد الحنون
نخطو فتبعنا المواسم
ثم نخطو ليسقط الشهداء — عفواً يزهر الشهداء
تنتفض القبور ..
الأرضُ مازالت تدور ..

أجنحة تغرطها الحروف

في سبيل الله أمضي
وعلى هدي كتاب الله قد أحكمت نبضي
أرتدي الفجرَ وأمضي في سبيلي
فإذا الشمس دليلي
وإذا الأنجم في قلبي وأعراس النخيل



خارجاً من محنة الليل
ومن صمت القبور .. من نفايات العصور
نهشت أظفارهم وجهي وألقوا الشوك في دربي.
وفي حبيّ عضّات الحصير
ممسكاً حفنة قمح رغم عصيف الريح والأنواء والجرح الخطير
وسطوراً من رحيق الذكر
أتلوها فيستيقظ سيفُ المجد

أتلوها فيصحو الورْدُ
أتلوها فتجري للينابيع طيوري



وعلى هدي كتابي
أبصر الأشياء من خلف الضباب
وأرى الأوجه من غير قناعات ومن غير خضاب
وعلى هدي كتابي
أزرع النخلة في القلب .. أروّيها شَبَابِي
أبصر النخلة تجتاز المسافات لتمتصَّ رحيقَ العمر ..
.. من تَذِي الرُّوَابِي
أسمع الترنيمة الأولى لِطَيْرِ الفجر
والترجيعة الأولى لديك الفجر
بوح الغيث للأرض الباب

وعلى هدي كتابي
أكتب الفصل الذي يأتي
وأخطو فوق حدّ السيف
أستنطقُ عُرِي البرق
كَي أنقذَ آلاف الرقاب
قد تقولون بأن السيف في كفي أقالتهُ المعارك ..
وبأنَّ اللَّيْلَ حالك

وبأني لم أعد أتقن شدَّ القوس ... تسديد النبال
والفتوحات التي أذمَّهَا العشاق ... ضربٌ من خيال
قد تقولون محال ..
أن يعودَ الركبُ إسلاماً . وأن تجري مع الركب الغلال ...



قد تقولون ولكني أقول
وأنا جدُّ خجول
وأنا أقرأ فصلَ الأمسِ عرسَ الشمس، أشواقَ الحقول
إن في الدرب الخيول
وعلى وقع التلاوات ستخضرُ الفصول
ولنا اليومُ الجميلُ
ولنا التكبيرُ الأولى لنا الآفاق والرايات والصوتُ البديلُ
ولنا السيفُ الذي خبَّأه البرق إلى اليوم الثقيلُ
ولنا الشجرُ الأخضرُ والدوخُ تمرَّح فيه الطيرُ .. والظلُّ الظليلُ
ولنا قارورةُ العطر
التي تسكبها الشمسُ على كفِّ الأصيل ..

للصحة أغني

وأقول للجيل الجديد
أقول للجيل المحصن بالعقيدة والمتوج بالصباح
وأقول يا جيل الكفاح
إنا بَلَوْنَا الليلَ والأحزانَ والموتَ المؤجلَ والجراحَ
وأقول يا جيل المصاحف
يا ضميرَ الأرضِ يا طلقَ الولادِ ..
ها أنت كالينبوع تدقُّ في صحارينَا ..
وتمنحنا الوثيقة والشهادة ...
أنت الذي سيبدلُ الأوزانَ والأحزانَ
يزرعُ في العيون نجيلَهَا
فلكمَّ تباطأً في الرّحيل عن القرى عامَ الرّمادَةِ !!



أنت الذي يقتاتُ جمر المرحله
ها إن أحبار اليهود تَجَمَّعُوا
ها إنَّهم حشدوا لنا
فاقرأ على تلك الحشود «الزلزلة»
اقرأ علينا باسم ربك ما تيسر يا بلال
الشمس في كبد السماء
ونحن في وقْدِ الظهيره
وكَمْ نتوقُ إلى الظلال !!

إقرأ علينا «المؤمنون» وشُدَّ قَوْسَكَ
إن قوسك لا تطيشُ بها النبال ..
كم ذا سألت فلم يجيبوا
كم سألت فلم يجيبوا
أنت وحدك مَنْ يجيبُ عَنِ السؤال.



ياأيها الجيلُ الجديدُ ويا سليلَ الطهر يابردَ اليقين
ك باسم ربك قلعةً لخائفين ومنهلاً للظالمين
وكن رصاصاً كن قصاصاً
كن جذوراً كن طيوراً
كن كما شاءتْ لك «الأعراف» في الزمن العجيب.



يا أيها الجيلُ الجديد

وقفت مندهشاً على أعتاب خطوتك الجديده

وقرأت نبضك وانطلقتُ بلا عنان

من سورة «الاسراء» جئتُ ومن نقاء الفجر والسبع المثاني

ورأيتُ من خلف الدخان وجوههم

وبلّوتُ عربدة الدخان

وحملتُ جُرحك والهجير

حملتُ جرحك والعيير

فما الذي حملته أغربةُ الزمان ؟!

على ضفاف الحلم

حينما ينهمر الطقسُ وتغويني القصيدةُ
أَتَقَرُّ أَوْجُهَ النَّاسِ
وَأَشْتُمُ تَرَابَ الْأَرْضِ
أُبْكِي مَلَأَ أَشْجَانِي
وَأَسْتَجِدِّي مُوَايِلِي الْبَعِيدِ
جَائِعاً جِئْتُ

وجمرُ القلبِ يخبو في الشتاء
وأنا من طبعي المنكود أُنِّي لأَجِيدَ الْعِزْفِ مِنْ خَلْفِ الْكُوَالِيْسِ
ولا أَرْقُصُ إِلَّا فِي الْعِرَاءِ



فانتظرنى أيها الطائر حتى أتبعك
وأغنيك
وبالرمش أغطي أضلعك

أيها المجنون بالوقت
تألق حينما تحتاحك الذكرى
تألق حينما تساقط الأوراق من ذاكرة الجرح
تألق حينما يصحو المساء
كلُّنا لما يزل في أول الدرب
ولم نبرح محطّات الهجاء ...
حدّث الأنجم عن عقم صحارينا .. وعن زيف الأخاء



آه لو أصدّاد يوماً بعض أسراب الطفولة
آه لو أنسج بالأهداب ريات القبيله
آه لو يمنحني الوقت بقايا الوقت
كي أجترح الفارس والمضمار والأغرودة الأحلى
وكي أستنبئ في الصحراء بعض الظلّ
كي أسكب في عري خلاياي القتيله
بعض قطرات خجولة ..

آه يا أمي
لو أنني لم أعد كهلاً ولم تصفر أوراق
لوم تهتز فوق الدرب ساقاي النحيلة !!



لغتي ضاقت عن الحرف
وقلبي غاله الجرح فلا تستنزفيه
ودعيني كلما علقت في الكوخ جراحي
ودعيه

يصطلي النار التي أوقدها بعضُ بنيه ...



كلما أطلقت حرفاً
وسقيتُ النبتة العجفاء دمعهُ
كلما طيرتُ عصفوراً وألقيتُ حصاة في مياه الأمس
أرسلتُ شراعاً ... قيل بدعه
كلما أشعلت في عمقِ ظلام الناس شمعهُ
هبَّت الريحُ الخماسية ... وهاج البحرُ ..
هاج البحرُ .. ما أسوأ طبعه !!



أنقذيني من عذاباتِ نهارِ الأَمْسِ
من وقدِ الظهيرةِ
وامنحيني وأنا الواقف خلفَ البابِ من دهرِ
فطيرةِ

وامنحيني لغةً أخرى
وأرضاً وبذوراً لا يجفّ الماء فيها ...
بسمة تغسلُ أوجاعي الضريه
وسماء تسحب الذيلَ بها شمسٌ أميره
إنه السكينُ في الظهر
فهل أملكُ أن أكتب يا أماء ... مَرثاتي الأخيرة ...

آخر الكلام

هذي حكايتنا الأخيره ...
وتضرَّجتْ بِدَمِ الشَّهَادَةِ شَهْرَزَادُ ...
جفت حروفُ الماءِ وافتَرَشَ القصيدةَ سَنَدْبَادُ ...
لا وقتَ لِلْقُبْلِ الحَمِيمَةِ
فالعناق يطلُّه سَيْفٌ ويحكمه زَنَادُ
قطفوا سلال البرتقال ... وأضرَمُوا فيه الهزيمه
يا أنت يا زمن الوليمه ...
سفحوا الشَّدَى وتسَلَّقُوا حُصَلَ القَصِيدَةِ

فامنحني الوقت كي أستقبل الشهداء
فالشهداء آخرهم يجيئ
عفواً ... وأولهم يضيئ
هل يزهر الشهداء ... في الزمن الرديء؟؟
زحف المداد على المداد ...
والبحر يجترح الخرائط والبلاذ



طلع الصباح على المدينة والدماء على الرصيف
وقاتل طعن النفسج
راية في الريح كان لها جواد
طلع الصباح ولم يقبل غير أحذية الجنود .. وغير أردية
الحداد



بيروت تعوزها القصيدة
بيروت تعرفها القصيدة
بيروت ترحل في العيون الحضر ملحمة جديدة

بيروت .. يا بيروت يا بيروت ...
يا عشا تموتُ به القنابر
بيروت يا ثدياً تغوصُ به الخناجر
تستبيح رُبَاهُ أغْرَبَةُ الْبَحَارِ
سَقَطَ الْحِصَارُ عَلَى الْحِصَارِ ..
يا جثَّةَ الْبَحْرِ يَقْذِفُهَا ...
ويحملها قطار



من أين تبدأ شهرزاد ...
وقد ترمّدتِ العباره
حتى القصائدُ أصبحت فيها العواطف مستعاره ...
من أين تبدأ شهرزاد ...
والجرح هذا الجرح ليس له ضماد ...

وضعوا الرقاب على السيوف
وقرّبوا منها الشواهد ..
عيني عليك وآخر الانباء تقذفها الجرائد

عيني عليك وقد تعفنت المدينة. فتحت أبوابها
للريح والزمن المعريد ... والجراد...



هذي النجوم فهل تضيء ...؟
وهذه الأشجار هل حملت ؟
وهذا البحر هل ألقى سوى زبد .. سوى جثث العباد !!

بوركت يا زمن الحصاد ...
بوركت يا زمن الحصاد ...
بوركت يا زمن الفجعة والرماد ...



دقي على الأبواب يا ريح الجنوب
فإن كهفي لا يغازل
إن كهفي لا يجادل
إن كهفي لا يقاتل
إن كهفي لا تغير به الجياد
دقي على الأبواب وامتشقي السؤال ...
دقي أيا ريح الشمال

بالأمس كَانَ هُنَا رجال ...
واليوم عَفَوَ اليوم ... قد سَقَطَ الغَزَالُ ...
إني أراهم يحملون على عواتقهم جنازه ...
من يَطْعَنَ الزَّمَنَ الاجازة ... ؟
من يعيدُ لنا يقين الانتماء ... ؟
في آخر الزَّمَنِ الغشاء ... ؟

الفهرست

5	الامضاء
7	تقديم
21	القصيدة الأولى السؤال
27	القصيدة الثانية أيتها المقصلة .. أيتها السنبلة
31	القصيدة الثالثة قطار الشمال الفلسطيني
37	القصيدة الرابعة مرثية للمساء الأخير
43	القصيدة الخامسة وللطقس حال أخرى
47	القصيدة السادسة رسالة إلى محمود درويش
55	القصيدة السابعة البشارة
59	القصيدة الثامنة لو
63	القصيدة التاسعة تمر القوافل
67	القصيدة العاشرة الغرباء
71	القصيدة الحادية عشر راوية المساء
75	القصيدة الثانية عشر الطقس
85	القصيدة الثالثة عشر الأرض مازالت تدور
89	القصيدة الرابعة عشر أجنحة تغردها الحروف
93	القصيدة الخامسة عشر للصحوة أغني
97	القصيدة السادسة عشر على ضفاف الحلم
101	القصيدة السابعة عشر آخر الكلام



الشاعر في سطور

- محمود مفلح من مواليد فلسطين / بلدة سمخ / على ضفاف بحيرة طبريا 1943.
- حاصل على الاجازة في اللغة العربية من جامعة دمشق عام 1967.
- عمل مدرّساً للغة العربيّة في سوريا والمغرب والسعودية.
- يعمل حالياً موجهاً تربوياً لمادة اللغة العربية في ادارة التعليم بنجران — السعودية.
- يكتب الشعر والقصة والنقد في الصحف والمجلات العربية.
- له خمسة دواوين شعرية وثلاث مجموعات قصصية مطبوعة.
- عضو رابطة الأدب الاسلامي بلكنهو — الهند.
- عضو اتحاد الكتاب العرب بدمشق.
- عضو اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين.